رسالة الى مناضل ...

بقلم عثمان سعدي

موسى سعدي

تلقيت اليوم كتابا من شقيقك حمل لي خبر وفاتك . ومن قبله باشهر تلقيت كتابا منك تخبرني فيه بوقوع شقيقي اسيرا بين ايدي الفرنسيين، وانت تعرف معنى « اسير بين ايدي الفرنسيين » انه : « سلسلة من الموتات تحت سياط الجلاد الفرنسي» .

واخرجت صورتك من محفظتي ووضعتها امامي بهدوء ، وانا احاذر ان تفسد الحركة علي خلوتي مع روحك التي تحسست حاجة نفسي ، اليها اثر اطلاعي على نبأ وفاتك ، وليس احب للانسان ، من لحظة هادئة يقتطعها من سير الزمن الصاخب ، ليخلو فيها الى نفسه يستخرج منها مكنوناتها بعد ان يشحذها بقداح « الحزن » ، ليس احب للانسان من لحظة يختلسها من انسياب الحياة الالي ليعتصر منها هذا الذي يسمونه « الحزن » ويستخرج منه خلاصة الجانب المشرق في شخصية الانسان : نبل الاحساس ، وصفاء التعاطف ، وسمو صلة الرحم .

واستعرضت حياتك فوجدتها مليئة بعناصر تنحت في مجموعها تمثالا جديرا بعنوان « البطولة » . اتذكر تلك السنة التي ودع فيها والدي الحياة ، وخلف وراءه اطفالا صغارا ، لا حامي يحميهم من صروف الدهر القاسية سوى جناحي ارملة ، وجناحا الانثى ضعيفان لايقويان على دفع برد طبيعة بلادنا القاسية ، عن فراخ صغار لم يعل الريش بعد اجنحتهم الصغيرة . اتذكر كيف تقدمت انت وتحملت مسؤولية رعاية شؤون اطفال صغار ، بينما تخلى عنهم من هو اقرب اليهم منك . كنت تدير زراعة حقولهم الضيقة النحيلة ، وتجمع محصولها البسيط وتحافظ على مواشيهم القليلة . كنت ساهر العين لئلا يضطر ابناء « صديقك وابن عمك » الى مد يدهم للغير .

اتذكر كيف دفعك حب الفلاح الطبيعي للعلم الى ارجاعي الى المدرسة على مسؤوليتك بعد ان اضطرتني ظروف قاسية الى مقاطعتها ، وكيف انهيت المرحلة الثانوية والجامعية بفضلك . لن انسى ابدا تلك السنة التي شحت فيها ارضنا عن العطاء ، وما اكثر السنوات التي تشح فيها ارض الجزائريين عليهم ، وكيف بعت فرسك ، والفرس عندنا عزيز لانه لايتخذ للتسلية والترفيه ، وانما لتخطيط تربة حقول صعبة ، واستخراج مايسد رمق الجياع .. نعم لن انسى كيف بعت هذا الفرس ، وتقدمت الي ووجهك تعلوه سحابة من جدك ، وعلى اثفك ظلال من انفتك ، وعيناك : عينا فلاح جزائرنا الحبيبة تتدفق منهما اشعة من نبل وكرم ، وإباء ، قلت : « لااريد ان تنقطع هذه السنة عن دراستك ، ولن تتوقف في الطريق مادام لي عرق واحد ينبض . »

لن انسى يوم ان رجعت من اجتماع « جماعة التراب » ناقما على الظلم ، لقد تقدمت بمشروع انصاف المرأة في بوادينا ، واعطائها حقها في الميراث ، بعد ان اغتصبه منها نظام العشائرية البغيضة ، لقد رجعت من عندهم هائجا ترغي وتزبد ، ولا زلت اذكر عبارتك في ذلك اليوم ، تلك العبارة الخالدة لانها من نوع يتحدى الفناء . قلت : « لقد اكل الرجل الظالم حق المرأة ، لانها قاصرة » و « قاصرة » تعني في لغتنا صفة ينعت بها كل من لايقوى على المطالبة بحقه لانه يجهل هذا الحق . نعم ان العطف على الضعفاء ، والدفاع عن قضيتهم ، سليقة عند ذوي القلوب الكبيرة ، وسجية عند اصحاب النفوس النقية ، وارهاص عند من كانت طبيعته خالية من التعقيد كطبيعتك .

كنت قبل غرة نوفمبر تدافع عن قضية المطلوبين كافراد ، وتشن معارك على الظلم ، والجشع اللذين تفشيا في مجتمع قريتنا الصغير ، فصرت فيما بعد تدافع عن قضية الملايين المظلومة وتشن حربك الشعواء على الخيانة والسلبية في كل الجزائر . كان الجوعان في قريتنا ـ قبل الثورة ـ يهرع اليك في لياليه الاشد سوادا ، فتتقاسم معه لقمة العيش والعريان يطرق بابك في امسياته الباردة فتنزع « برنوسك » من رقبتك وتمده له في شفقة وتاثر ، والضعيف يستنجد بك من جشع المبتزين او من ظلم المعتدين ، فتنجده وتجلب عداوة الاقوياء من اجله . ولم يكن لك مال زائد عن الحاجة لان امثالك يستحيل عليهم كنز المال ، ولم تكن لك سلطة تعتمد عليها لان السلطات في بلادنا مع القوي وعلى الضعيف مع اصحاب البطون المنتفخة وضد الجياع والعراة . كان سلاحك الوحيد شجاعة في القلب ، وجرأة في الطباع ، وحدة في الارادة ، واستماتة في سبيل ماامنت بانه حق . يتوج كل هذا ايمان بالله صادق ، وذكاء في العقل وقاد .

وقامت الثورة : ثورة شعبنا العظيم ، ثورة جبالنا العالية ، وغاباتنا الكثيفة ، وصخورنا الجبارة ، وحملت لي الانباء انضمامك الى صفوفها في ايامها الاولى ، التي لايعرف قساوتها سوى الرعيل الاول من ثورتنا . ولم اتعجب لان « موسى اليوم » هو نفسه « موسى الامس » ، لم يتغير فيه سوى الطابع الذي اسبغته ثورتنا على حركاته، والفعالية التي منحتها لاعماله ، والتحديد الذي حصرت فيه اهدافه ، والمستوى الشعبي الواسع الذي رفعت اليه تفكيره .

وعرفك قادة الثورة منذ اللحظة الاولى لانضمامك ، فاناطوا بعنقك مسؤولية الاتصال بالشعب ، واقناعه بمبادىء الثورة ، وهي مسؤولية شاقة لان الفلاحين ـ مصدر قوة الثورة ، ورأسمالها ـ نجح الاستعمار في تجميدهم وعزلهم عن حقل النضال منذ عشرات السنين ، وبقيت قواهم مجهولة لدى الزعماء السياسيين ، فلم يعيروهم اهمية تذكر ، فاقناعهم ليس بالمهمة السهلة ، وتربيتهم الثورية ليست بالامر الهين ، ولهذا كانت مهمة المرشد السياسي لايقوى على تاديتها سوى من امتزجت عنده

الشجاعة بالحكمة ، وأوتي هذه القوة الذاتية في الحصول على ثقة الجماهير ، وتحملت انت هذه المسؤولية ورحت تعمل في صمت وسرية فتجمع التبرعات ، وتسهل عملية تهريب الاسلحة ، وتمرير الدوريات .

ولم يطمئن الفرنسيون اليك .. وكيف يطمئنون وهم يعرفون عنك الكثير !! الم يكن معدنك جامعا لكل العناصر الصالحة لغرس نبت الثورة ؟ الم تحمل شخصيتك منذ زمن طويل تباشير ثورتنا ؟ولم ييأس الفرنسيون في القبض عليك « متلبسا بالجريمة ... » وحاصروا منزلك وهاجموه فمثروا بزاوية من زوايا غرفة على حربة نسيها جندي من دورية تابعة لجيشنا ، كانت قبل لحظة وجيزة تتناول على مائدتك غداءها ... واقتادوك الى السجن ، واستطعت ان تنتصر بفضل ذكائك وحسن تخلصك ورباطة جاشك ، فاطلقوا سراحك بعد ساعات .

وتاكد المستعمرون انك عنصر خطير في الثورة ، وعندما يئسوا من القبض عليك « متلبسا بالجرم ... » قرروا القبض عليك ، وهاجموا منزلك ؟ الا ان الشعب الذي احبك وتربى ثوريا على يد امثالك لم يهن عليه ان تقع بين ايدي اعداء الثورة لانك من النوع الذي يصعب تعويضه فتسلل فلاح من فلاحينا الذين حوت نفوسهم العربية انبل مشاعر عرفتها البشرية ، تسلل تحت جناح الظلام مجتازا اهوالا ايه اهوال ليخبرك بقدوم الفرقة الفرنسية ، وليقول لك في بساطته الواعية: « اهرب ياسي موسى لان في فقدانك خسارة للثورة » وخرجت من منزلك ممتطيا فرسك : رفيق العمر ، تحت طلقات البنادق التي احالت الليل نهارا ونجا فرسك المخلص الامين ، وسلمك الى امك الحنون : ام كل ثائر ، الى غاباتنا ... ثم سقط صريع رصاصة فرنسية يتلوى من الم لا يدري مصدره أهو فراقك الابدي؟ام دقات الردى القوية على ضلوعه؟!

واختفيت في الغابة ، ورجع المستعمرون يجرون اذيال الخيبة ، دون ان يجرؤوا على دفع اقدامهم نحو الجبال لانهم يخشون جبروتها ، ومنذ ذلك الوقت صرت لاتتصل بالشعب ، بجماهير الفلاحين الا تحت جناح الظلام ... كنت تستظل بسقف فصار سقفك سماء الجزائر الصافية الا من غيوم تدر خيرا ، كنت اذا اعيى الاجهاد جسمك النحيل تسند ظهرك الى جدار ، فصرت اذا اعياك السير تستند الى ساق شجرة من صنوبرنا العملاق . كنت لاتشاهد في محيط القرية الا مايذكرك بالظلم : اطفالا جياعا اضناهم الجوع فناموا مستسلمين بعد ان نضبت الدموع من اجفانهم ، شيخ عجوز يرى ابنه الوحيد ينخر السل عظامه وهو عاجز عن دفع الاذى عنه ، حقول طفت فيها الصخور والحصى على التراب والسماد ، وزحفت الرمال عليها فصارت تجود في كل عشر سنوات مرة. كنت حيثما التفت شاهدت الظلم فخرجت الى الجبال باحثا عن معبودك الحق ، بل مغتصبا له من بين يدي اعدائه ، كذلك الفيلسوف الذي ضاق بالمجالات الضيقة ، ويئس من العثور على الحقيقة ، بين صفحات كتبه المتآكلة ، فطواها وسلمها لفوهات صناديق سوداء احكم اغلاقها ، ثم ذهب فسكن سهولا حيث تمتد الافاق الى اللانهاية ، وتمتزج الحقيقة بكل منظر من مناظرها ذات الاطراف المترامية ، وبكل مجموعة من جماهيرها ذات الامزجة المختلفة .

ومرت الاشهر تطارد الاشهر ، ووجد فيك رفاقك ماكانوا سمعوه عنك : عطفا على الاهالي متطرفا ، وشفقة على الشعب صادقة .واصطدمت ببعض شبابنا المتحمس للجيش ، هم ينظرون الى الشعب من خلال الجيش ، وانت تنظر للجيش من خلال الشعب ، هم يدفعهم احيانا اندفاع الشباب فيفرضون على الشعب واجبات ثقيلة ، وانت تتصدى لهم ، وترفع صوتك ذا النبرات الحادة فيوجوههم ، مطالبا بعدم الاسراف في تصريف قوى الشعب ، وانتصرت ونزل شبابنا على رأيك . وزاد تعلق الشعب بك ، لان الشعوب هكذا .. تمنح حبها الخالد الى كل من دافع عن قضاياها باخلاص، وتعطف على كل من عطف عليها . الافراد تدفع مقابل كل حسنة حسنة مثلها ، اما الشعوب فقوتها من قوة الله ولهذا تقابل الحسنة بعشرات امثالها .

لكن هذه الجبال التي وقتك من كيد الفرنسيين ، هذه الجبال التي صنعت من صنوبرها وبلوطها ، وعرعارها وصخورها ، ووديانها واخاديدها دروعا متينة لابطال جيشنا ، هذه الجبال هي التي نفذ بردها الى عظامك ، تمكن داؤها من مفاصلك اثناء عواصف ثلجية ، وموجات من الصقيع ، افقدتها وعيها ، وقد تخنق الام الحنون انفاس رضيعها في نزوة من نزواتها اللاواعية ، او سنة من نومها العميق ، ثم تظل الدهر كله تبكيه بدموع يتفتت لمرآها الجماد الاصم .

ونصحك الطبيب بالمثول الى الراحة فتحديت نصيحته لان مثلك لاتشفيه الراحة وانما تجمده ، والتجميد وقعه قاس على من تكمن في اعماقه نفس ثائرة .. وانطلقت الى الجبال تذيب على صخورها مابقي من جسمك ، وارسلت الي صورتك فذهلت لمرآى وجهك الشاحب الذي تنطق كل سمة من سماته باقتراب نهايتك ، حملت القلم وكتبت لك كتابا انصحك فيه بالراحة ، وبعد ان وضعته في ظرفه ، وكتبت عليه عنوانك ، حانت مني التفاتة الى عينيك فوجدت في بريقهما تعبيرا ماعهدته فيهما من قبل ، وتمعنت في هذا التعبير فوجدته كله سخرية من كتابي ونصيحتي ، وتصبب العرق من جبيني ، وثار شعر رأسي ، واقشعر بدني ، لان حدسي اكتشف في هذا التعبير سرا لايملكه سوى الشهداء ، فمزقت كتابي وحطمت قلمي ...

كنت تشبه الفتيلة التي نفد وقودها ، الا انها استمرت في الاشعاع حتى احترقت ، وانطفأ شعاعها في رمادها .. الا ان الفرق بينك وبينها ، هو انك لم تنطفىء ...

ثم احسست بالالم يعود الى عظامك حادا في هذه المرة ، فانحدرت الى السهول للاستشفاء وودعك المجاهدون وهم يأملون عودتك ، لانك عودتهم الانتصار على كل شيء ... الا انت فانك ادركت انك لن تعود سوى ذكرى تشرق على الملايين بالحب والنبل والسلام : السلام العربي..

كنت وددت لو دفنوا جثمانك تحت شجرة صنوبر استظل مجاهد باغصانها ، او فوق قمة من تلك القمم التي كثيرا ما ارسلت بحممها على اعداء الحق ، ووقت بصخورها صدور انصار الحرية . الا انك ابيت الا ان تتحدى حتى في نهايتك ، وكان تحديك في هذه المرة عميقا عمق اخلاصك ، وساميا سمو جهادك ، يهفو اليه كل قلب ينبض بالعروبة الصادقة ، وتحنو عليه كل نفس تشرق بالخير لامة العرب ... وخط قبرك في قرية تونسية ، وودع جثمانك الى مرقده الاخير خليط من عرب تونس والجزائر ، الا يعتبر هذا تحديا للحدود ... الحدود التي لازالت تشوه جمال وطننا الكبير ؟.. نعم انه انبل تحد ان تجاهد في جبال الجزائر ، ويخط قبرك في سهول تونس ...

اما انا فعندما اعود سوف اضع على قبرك باقة من زهور برية ،اجمعها من سفوح جبال لبنان ، ومن اطراف الغوطة ، ومن قمم هضاب الرصل ومن اعماق وادي العرب ، ومن حقافي النيل ، ومن بين صخور الجبل الاخضر ، ومن وديان الاطلس ، اخلاصا لذكراك وتقديرا لجهادك ...

الكويت — عثمان سعدي